

التطرف والتطرف المضاد

د. محمد عبد العزيز ربيع

تتصف العلاقة بين أمريكا والقوى الإسلامية المتطرفة بالكرهية والعداء المتبادل، واتجاه كل فريق إلى العمل على إضعاف الفريق الآخر، والنيل من سمعته وإلحاق الضرر بمصالحه بقدر الإمكان. ويعود سبب العداء المتبادل هذا إلى عدة عوامل، بعضها تاريخي ذا جذور حضارية تتعلق بموقف المسيحية من الإسلام والمسلمين في العصور الوسطى، وموقف المسلمين والعرب من الحروب الصليبية والاستعمار الغربي للبلاد العربية، وهو الاستعمار الذي عمل على تمزيق الأرض العربية وتجزئتها إلى دويلات متنافسة. أما البعض الآخر فهو ثقافي أوجدته وأثارته وسائل الإعلام الأمريكية من خلال الأفلام والبرامج الترفيهية والوثائقية التي تنتجها وتحاول من خلالها تشويه ثقافة العرب وصورة الإسلام، ودعوات الإسلاميين المتطرفين في المقابل إلى مقاومة المنتجات الثقافية الأمريكية وطريقة الحياة الغربية وتكفير غير المسلمين ومن لا يؤمن بالإسلام على طريقتهم.

رغم كل هذه العوامل والأسباب لم تصل درجة الكراهية المتبادلة بين القوى الإسلامية المتطرفة وأمريكا حد العداء إلا بعد اتخاذ الحكومة الأمريكية موقف الانحياز لجانب إسرائيل، والقيام بدعم الكيان الصهيوني بشكل كامل وغير أخلاقي، وتأييد احتلال الدولة اليهودية للأرض الفلسطينية واغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني. وبعد قيام الحكومة الأمريكية بتكرار اعتداءاتها العسكرية على بعض الدول العربية والإسلامية، خاصة القيام باجتياح العراق وأفغانستان، وجدت المنظمات الإسلامية المتطرفة نفسها مضطرة للرد على العدوان الأمريكي وشن عمليات إرهابية ضد الوجود والمصالح الأمريكية في دول عربية وغير عربية.

إلى جانب ذلك، لعبت بعض العوامل التاريخية والتربوية والثقافية دورا كبيرا في تعميق سوء الفهم الأمريكي للإسلام وثقافة المسلمين من ناحية، وسوء فهم المسلمين عامة للأمريكيين وثقافتهم من ناحية أخرى. فالثقافة العربية الإسلامية السائدة تعود بجذورها إلى عصور ما قبل الصناعة، بينما تعود جذور الثقافة الأمريكية إلى عصر ما بعد الصناعة، وهذا يجعل الفجوة الحضارية بين الثقافتين كبيرة جدا وتقاس بمئات السنين، ويجعل التواصل والتفاعل القائم على الفهم والاحترام المتبادل صعبا. ومما ساهم في تكريس وتعميق الفجوة الثقافية هذه وجود نزعة أمريكية استعلائية ذات نكهة عنصرية تنظر إلى الغير عامة وإلى العرب والمسلمين خاصة نظرة دونية، ونظرة إسلامية في المقابل تعتبر الانجازات الحضارية الغربية انجازات مادية لا إنسانية تفتقد الروحانيات والأخلاقيات. إلى جانب ذلك، أدى إهمال الدول العربية والإسلامية العمل الإعلامي والنشاط الثقافي في الغرب عامة، وفي أمريكا خاصة إلى وقوع المجتمع الأمريكي ضحية إعلام صهيوني معاد للعرب والمسلمين ومسخر لتشويه صورتهم والتشكيك في عقلانيتهم وإنسانيتهم. ومما ساعد الإعلام الصهيوني على تحقيق أهدافه على الساحة الأمريكية دون جهد يذكر، ظهور حركات دينية مسيحية متطرفة تدعو إلى تأييد إسرائيل وتعمل على دعم أهداف الحركة الصهيونية باعتبار قيام دولة إسرائيل ضرورة لتحقيق النبوة المسيحية والإسراع بعودة المسيح لإقامة العدل في الأرض وإنقاذ المؤمنين من العذاب.

إن من سخرية القدر أن الحركات المسيحية المتطرفة تعتقد أن المسيح سوف يجبر اليهود على اعتناق المسيحية وسوف يلجأ إلى التخلص ممن يرفض أوامرهم منهم. وهذا يعني أن الحل الذي يراه المسيحيون المتطرفون للمشكلة اليهودية يقوم على إجبار اليهود على تغيير دينهم أو قتلهم، وهو حل غير أخلاقي وغير إنساني. رغم ذلك اتجه قادة حزب الليكود الإسرائيلي إلى التعاون مع المتطرفين المسيحيين، وذلك لاعتقادهم بأن التعاون مع أولئك المتطرفين يخدم الإستراتيجية الإسرائيلية على الساحة الأمريكية ويضمن استمرار الدعم السياسي والاقتصادي الأمريكي للكيان الصهيوني. أما قادة حزب العمل فقد رفضوا منطق تلك الحركات ودعوات التعاون معها بسبب موقفها العنصري، واتجهوا إلى التركيز بدلا من ذلك على الإعلام والمدارس والجامعات الأمريكية بهدف القيام بإعادة تثقيف الشباب وغسل أدمغة العامة وشراء ولاء رجال الكونغرس.

يتضح مما سبق أن الموقف العدائي الذي تتخذه الحركات العربية والإسلامية المتطرفة من أمريكا يقوم على الجهل والكراهية من ناحية، وعلى حقائق تجسدها السياسة الأمريكية العدوانية في فلسطين، والقوات العسكرية الغازية في العراق وأفغانستان. أما الموقف العدائي الأمريكي للعرب والمسلمين فيقوم على الجهل والكراهية والعنجهية التي تجسدها العقلية الأمريكية التي نصبت نفسها خصما وحكما في كل ما يتعلق بالعرب والمسلمين وصراعهم مع الصهيونية وإدارة الحكم في بلادهم، وحتى ما يدرسون أولادهم في المدارس والجامعات.

إن إدراك إدارة الرئيس بوش للأخطاء التي ارتكبتها حكومته في تعاملها مع العرب والمسلمين عامة، واتجاهه إلى العمل على توضيح الموقف الأمريكي غير المعادي للإسلام، هو بلا شك عمل جيد، وإن جاء متأخرا عن موعده بكثير. إن من الممكن أن يساهم هذا التحرك في تخفيف حدة العداء والكراهية بين الجانبين إذا قامت أمريكا بتغيير سياستها الحالية وتراجعت عن بعض مواقفها في فلسطين والعراق. لكن في حالة استمرار السياسة الأمريكية الشرق أوسطية على حالها، فإن التحرك الأمريكي من المؤكد أن يبدو انتهازيا، ويجعل العرب ينظرون إليه باعتباره محاولة لخداعهم وتخديرهم ريثما تستكمل أمريكا خططها العدوانية وتحقق أهدافها السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية. وهذا يعني أن من المحتمل أن يعود التحرك الأمريكي بنتائج سلبية تؤدي إلى زيادة الشكوك في نوايا أمريكا وليس إلى تخفيفها، مما يستوجب قيام أمريكا بإعادة تقييم سياستها تجاه العرب والمسلمين عامة، وفلسطين والعراق خاصة.

إن قيام أمريكا بتفسير نفسها للعرب والمسلمين يمثل جانبا واحدا فقط من معادلة العداء والكراهية المتبادلة بين الجانبين، وهذا يستوجب قيام أمريكا أيضا، وبالتعاون مع العرب والمسلمين، بتفسير الإسلام للشعب الأمريكي. إنها بلا شك معادلة صعبة، وأن حلها ليس ممكنا إلا بتعاون الطرفين والعمل سويا على تضيق الفجوة الثقافية التي تفصل الشعبين عن بعضهما البعض، وقيام كل طرف بعمل ما يجب عليه عمله لتصحيح الأخطاء التي ارتكبت في الماضي وتصويب الممارسات التي تجري في الحاضر. لقد أهملت الدول العربية والإسلامية العمل الإعلامي على الساحة الأمريكية طويلا، وسمحت للمتطرفين في بلادها بالسيطرة على التيارات الثقافية والفكرية والقيام بجر العامة إلى الماضي باعتباره الطريق إلى الخلاص من مظالم الحاضر والأداة الوحيدة لتخليص الناس من الهيمنة الأمريكية وتحرير فلسطين من قبضة الصهيونية.

إن الجماهير العربية والإسلامية التي تعتقد أن الماضي هو طريق العبور إلى المستقبل المنشود، وأن قيمه وطرق تفكيره تحمل أدوات تحقيق الحرية السياسية والنماء الاقتصادي، وإن عليها أن تعيش في شوق دائم له، هي جماهير مغرر بها ومحكوم عليها أن تبقى متخلفة. إن ثقافة وقيم الماضي لم تعد صالحة للحاضر، وليست قادرة على فعل أي شيء ايجابي بالنسبة للمستقبل، إنها قيم تجاوزها الزمن ولا يمكن الرجوع إليها أو إحيائها. إن من سنة الكون أن تنتهي الحياة، كل حياة، بعد عمر قد يطول وقد يقصر، وأن عمر الثقافة العربية والإسلامية التي صاغها الأجداد وطورتها المتغيرات البيئية والاقتصادية قد انتهى بانتهاء المعطيات الحياتية التي كانت سائدة في حينه. وإذا كان من المستحيل إعادة الحياة للماضي، فإن التمسك بمخلفاته الثقافية والفكرية ومواقفه وعلاقاته الاجتماعية لن ينجح في صيانة الثقافة العربية، ولا في الحفاظ على الهوية الوطنية. إن على العرب مواجهة الحاضر والتعامل مع ما يسوده من فساد وتخلف باستخدام أدوات العصر، وليس باستخدام معاول الماضي، وإن التعامل مع أمريكا وإسرائيل وهزيمة مخططاتها لا بد وأن يقوم على إدراك حقائق العصر واستخدام أدواته وعلومه ومعارفه لخوض معركة الحاضر وبناء المستقبل المنشود.